الابداع والمعرفة في عصر العولمة

محمد عبد العزيز ربيع

التاريخ هو قصة التطور المجتمعي عبر العصور، وسجل الأحداث الأهم التي صنعها وعاشها الانسان على طريق التقدم والرقي . وحيث ان الاحداث والاشياء المحركة للتاريخ لايصنعها سوى المفكرون والمبدعون والعلماء والقادة ، فان التاريخ قلما احتفل بغير الموهوبين والعباقرة من صناعه وقادته. ولقد ساهم المبدعون في توجيه حركة التاريخ من خلال خلق الجديد من الاشياء والادوات ، وتطوير الخلاق من الافكار والنظريات الفلسفية ، وتأسيس الرائد من الحركات الاجتماعية والسياسية والمؤسسات الاقتصادية ، وتطوير العلوم والفنون التكنولوجية ، وتصوير أحاسيس ومشاعر الناس الخفية على شكل قصص شيقة واساطير ساحرة وأشعار جميلة وأفلام مثيرة ورقص وموسيقي معبرة وغيره .

من ناحية أخرى ، يشير التاريخ الانساني الى أن التقدم والرقي المجتمعي ، بشقيه المادي وغير المادي ، جاء أساسا نتيجة لفعل أربعة عوامل رئيسية :

1. حدوث اكتشافات وتطورات تكنولوجية هامة ، خاصة في مجال أدوات وأنماط واساليب الانتاج، ووسائل الانتقال والاتصال ، وجمع وتحليل وتصنيع المعلومات .
2. حدوث تحولات اجتماعية وثقافية عميقة ، خاصة في العلاقات بين الناس، وفي الموقف من العمل ومن الوقت ومن الاخر.
3. حدوث تراكم معرفي ، خاصة في فهم الطبيعة وقوانينها وخصائص الاشياء وأسرار الحياة والكون .
4. تبلور مؤسسة الملكية الخاصة عبر الزمن
5. نزوع الانسان الدائم نحو الحرية ، خاصة الحرية السياسية والحرية الفكرية والحرية العقائدية.

كان التحدي الأهم الذي واجه الانسان الأول هو التعامل مع بيئته الطبيعية ذات المزاج المتقلب والعطاء المحدود . ولقد اتجه الانسان بسبب ضعفه وبدائية أدواته التكنولوجية وإنعدام معارفه العلمية الى التكيف مع أوضاع بيئته الطبيعية، وذلك من خلال الترحال والتنتقل المستمر بحثا عن ثمار يقطفها وحيوانات يصطادها من ناحية ثانية، والعيش في الكهوف هربا من تقلبات الطقس ومن الحيوانات المفترسة من ناحية ثانية . لكن الانسان وبعد نجاحة في تدجين بعض الحيوانات واكتشاف دورة حياة النبات وتطوير الزراعة أصبح قادراً على التعامل مع بيئته الطبيعية بكفاءة اكبر من السابق ، وذلك من

خـلال فلاحـة الارض وانتـاج حاجتـه مـن الغـذاء ، واسـتخدام الحيوانـات المدجنـة فـي عمليـات نقـل المنتوجات التنقل بين مكان واخر، والاستقرار وبناء بيوت اكثر أمناً ومقاومة للتقلبات الجوية .

وبعد الانتقال من عصر الزراعة الى عصر الصناعة اتجه الانسان الى العمل على تكييف بيئتـه الطبيعية والسيطرة عليها لتتوافق مع احتياجياته ورغباته في حياة اكثر أمنا واستقرارا ومتعة ورفاهيـة ورقيا. ولقد استوجب هذا التوجه وترتب عليه قيام الانسان بتطوير أساليب عمـل وانمـاط إنتـاج جديـدة وأدوات تكنولوجية وعلوم مبتكرة لزيادة عطاء الارض والنبات والحيوان والنسان على السواء ، ورفع انتاجية الالة والعامل، وادارة أوجه الحياة الاقتصادية وغير الاقتصادية بكفاءة اكبر. واليوم يـتم انتقـال الانسان من عصر الصناعة الى عصر المعرفة، ومـن صـناعة البضـائع الـى صـناعة المعلومـات ومـا يعنيه ذلك ويفرضه من تحولات اجتماعية وثقافية كبيرة وعميقة.

حين بدأ الانسان الأول صراعه مع بيئته الطبيعية اكتشف بسرعة انه كان عليه ان يتعامل أيضـا مع غيره من الناس بشكل يقلل مخاطر الاحتكاك بهم ويزيد متعة الانتماء الـيهم . وهـذا أدى الـى مـيلاد الثقافات وتبلورها ببطء على شكل عادات وتقاليـد وأعـراف وقـيم وعلاقـات اجتماعيـة سـاهمت البيئـة الطبيعية والجغرافيا فـي تشـكيلها وتحديـد عناصـرها الأساسـية. ومـع تـأمين الغـذاء واسـتقرار الحيـاة الاجتماعية ، اصبح بإمكان الانسان الزراعي توجيه جزء متزايد من وقته للتفكير والتأمل مما قاده الـى اكتشاف وتطوير الديانات المختلفة ، والتي حملت للانسان معتقدات وقـيم جديـدة قامـت باعـادة تشـكيل جانب هام من جوانب حياته الاجتماعية والثقافية حيث اصبح الدين جوهر الثقافة.

ان عدم قدرة الانسان على اكتشاف وتفسير الجزء الاكبر من اسرار الكون والحيـاة عامـة دفعـه الى اكتشاف وخلق واعتناق اديان مختلفة . ولقد لعب الدين ولا يـزال يلعـب أدوار اهامـة ومتعـددة فـي حياة الانسان ، وذلك من خلال تقديم تفسيرات مرضية لاسرار الكون والحياة، وإمداد الانسان بمنظومة شبه متكاملة من القيم والمعتقدات والشرائع المنظمة للسلوك والعلاقـات الاجتماعيـة. وهـذا جعـل حيـاة الانسان اكثر أمنا واستقرارا، خاصة من النواحي والنفسية.

الى جانب ذلك ، قام الدين عامة ، خاصة قبل نشوء الدولة وفي عصور ضعفها وفقدان الثقة بها، بدور القانون الاخلاقي الذي ساهم في تنظيم بعض أوجه الحياة في المجتمع وساعد على الحدّ من الفقر والجريمة والانحراف . وحيث ان الديانات جميعا تميل الى الادعاء بانها تمتلك حقائق ازليـة مـن صـنع الهة عظيمة ذات قدسية، فان القيم والمعتقـدات والافكـار والتشـريعات الدينيـة أصـبحت جـوهر الثقافـة وبوتقة العلم . ولما كانت الحقائق الالهية ثابتة وغير قابلة للنقض ، فان الثقافة عامة اصبحت اكثر ميلاً

للثبات وضعيفة القدرة على التطور والتحول ، كما أصبح العلم يدور في فلك التفسيرات الدينية والمعتقدات الغيبية.

قامت الديانات في تفسيراتها لاسرار الكون والحياة بدعوة الانسان الى التأمل في الحياة وليس الى التجربة العملية لاكتشاف قوانين الحياة ، الى التخيل وليس الى التفكير الواعي ، الى الخوف من الخطأ وليس الى التعلم من الخطأ ، والى الاستلام لما بعد الحياة والعقل وليس الى التمتع بالحياة والاعتماد على العقل . وهذا قاد الى سيطرة الدين على العلم، وادى إلى خلط العلم والخرافات والاساطير الشعبية والدين بعضها ببعض، خاصة وان الكثير من الخرافات والاساطير كانت قد ظهرت وانتشرت قبل ظهور الديانات. وهكذا أصبح من المتعذر، وأحيانا من المحظور قيام العلم بالبحث عن الحقيقة في ثنايا المفاهيم الغيبية والاساطير الشعبية السائدة . ونتيجة لذلك أصبح البسطاء من عامة الناس اكثر قابلية لتصديق ادعاءات وخرافات لايمكن التأكد منها او اثباتها علميا ، واقل قابلية لتصديق أشياء واحداث يمكن مشاهدتها واختبارها والتأكد من صحتها عملياً .

ومع تجذر المعتقد الديني في المجتع وقيامه بدور العنصر المنظم للثقافة الشعبية أصبح من الصعب على الثقافة والعلم ان يتطورا بالسرعة المطلوبة لمجاراة التطور التكنولوجي الذي يتصف عامة بالحيادية الدينية والثقافية . كذلك أصبح من المحظور على العلم والعلماء والمفكرين في الكثير من الاحيان والحالات المغامرة في بحار قد تقودهم الى اكتشاف اسرار كونية او حياتية تتناقض مع المعتقدات الدينية . ولقد ترتب على هذا تعثر مسيرة المعرفة العلمية بوجه عام، وتباطؤ عملية التطور التكنولوجي المؤسس على العلم وقوانينه بوجه خاص ، وجمود الثقافة الى حد بعيد . لكن العلماء والمفكرون ورجال الاقتصاد والسياسة واجهوا تحدي المؤسسة الدينية في عصور النهضة الاوروبية وخاضوا حربا طاحنة ضد الكنيسة الكاثوليكية كانت نتيجتها هزيمة الكنيسة بعد حروب دينية دامت ثلاثين سنة وانتهت في عام 1648. ولقد ترتب على ذلك تحرر الفكر والعقل ، وتقدم العلم ، وتراكم المعرفة ، وتسارع وتيرة التطورات التكنولوجية والتحولات الاجتماعية. ورغم تحالف جهات عدة ضد الكنيسة، فان السبب الاهم لهزيمتها كان نتيجة لكون التحدي الاهم لتعاليمها قد جاء من داخلها.

ان قيام النهضة الاوروبية بمواجهة التحدي الديني وصولا الى تحرير العقل والفكر والعلم والاقتصاد لم يكن بالامكان حدوثها في حينه لولا الانجازات العربية الاسلامية، خاصة في مجالات الرياضيات والكيمياء والقانون والفلسفة. لكن، بينما كانت اوروبا تنهل من روافد العلم العربية، كان العرب يدخلون نفق الخلافات السياسية ويغرقون في بحار الخرافات والشعوذة باسم الدين، ويبتعدون عن حكمة العقل ورأي العلم وأصول التعامل مع الاشياء والاحداث بعقلانية. وهذا يعني انه بينما كانت الشعوب الاوروبية تتقدم بثبات وتستولي تدريجيا على عملية صنع التاريخ الحضاري للانسانية، كانت

الشعوب العربية والاسلامية عامة تخرج من التاريخ الحضاري لتعيش على هامشه قرونا لم تنتهي بعد. ان تحرر الفكر وتحرير العقل كانا مفتاح التقدم العلمي والتطور التكنولوجي والتراكم المعرفي عبر العصور، وهي التراكمات والتطورات التي أوصلتنا الى ما نشهده اليوم من عولمة تشمل كافة نواحي الحياة : الاقتصاد ، واسواق المال والاستثمار والتجارة ، والثقافة والاعلام ، وحتى الارهاب الذي يستخدم العلم وتكنولوجيا العصر لتدمير روح العصر وتشويه معنى التواصل بين الثقافات والشعوب.

وهنا اود ان اشير بسرعة الى انه رغم استخدامي لتعبير عصر العولمة ، فان العولمة لاتشكل عصرا على الاطلاق. العولمة ظاهرة مجتمعية ومرحلة تاريخية تعمل على الانتقال بالمجتمع الصناعي وشعوبه من مرحلة الاعتماد على الالة الى مرحلة الاعتماد على المعرفة، اي الانتقال من عصر الصناعة الى عصر المعرفة ومن تصميع البضائع الى تصنيع المعلومات والخدمات. ويتم هذا الانتقال اليوم من خلال تكامل اقتصاديات الدول، وتلاقح ثقافات الشعوب، وتفاعل سياسات الامم، وتواصل الافراد والجماعات، وتراكم المعارف العلمية والتكنولوجية ووضعها في متناول المعرفين والقادة الواعين وفي خدمتهم أينما كانوا وايا كانت معتقداتهم الدينية وانتماءاتهم الوطنية والايديولوجية .

تتميز الثقافة بالتطور من خلال التغير والاحلال، أي إحلال عادات وعلاقات اجتماعية جديدة وتقاليد عمل مختلفة ومواقف مجتمعية غير تقليدية محل العادات والتقاليد والمواقف القديمة. وهذا يعنى انه ليس بالامكان حدوث تطور وتقدم ثقافي حقيقي دون حدوث تلاقح واقتباس وتحول ثقافي من شانه إعادة هيكلة الثقافة التقليدية على أسس جديدة متوافقة مع طبيعة أنماط الانتاج غير التقليدية. اما العلم فيتميز بخاصية التراكم والتخصص والانتشار البطئ، وذلك لان احتياجاته المالية والمؤسسية تتجاوز في غالبية الاحيان والحالات امكانيات معظم الشعوب. أما التكنولوجيا فتتميز بخاصية الاحلال والتراكم والانتشار السريع في آن واحد ، وذلك لان حيادية معظم الادوات والاساليب التكنولوجية جعل بامكانها خدمة مصالح المجتمعات المختلفة رغم ظروفها المتباينه ودون جرح حساسياتها الثقافية.

ان قدرة المنتوجات التكنولوجية على توفير المزيد من الراحة والمتعة والسلع للانسان جعلها عروسا جميلة يخطب الجميع ودها دون وعي بان الاقتراب منها يسحرهم ويفرض عليهم أنماط ثقافية جديدة غير مألوفة كثيراً ما تتعارض من الموروث من القيم والتقاليد والعادات والاعراف وتعمل على اضعافها وتقويضها من الداخل. وهذا يعني انه ليس بالامكان استخدام تكنولوجيا حديثة مع الحفاظ على الثقافة التقليدية ودون تلقيحها بعادات وتقاليد جديدة وتطعيمها بقيم غير تقليدية. كما انه ليس بالامكان تحرير العقل والفكر والعلم دون تطوير البيئة الثقافية. ان حرية الانسان وتقدم مجتمعه لن يتحققا دون حدوث تطور ثقافي وتراكم معرفي وتحرر سياسي واجتماعي ونماء اقتصادي.

في عصور ما قبل الزراعة كان القبلي حرا بالمفهوم السياسي ويعيش في مجتمع خالي من الطبقات الاجتماعية، لكنه كان محكوما لتقاليد وأعراف قبلية صارمة وهاجس أمني - وجودي طاغي ارتبط بتوفر الغذاء وحماية الذات من القبائل الاخرى. وهذا جعل ثقافة الانسان القبلي عامة تتمحور حول توفير الأمن الغذائي والوجودي من خلال الاعتماد على عطاء الطبيعة والحذر من الآخر وممارسة الحروب والقبول بمخاطرها وتبعاتها. ولذا " كان القبلي يحارب ليعيش ويعيش ليحارب. "

كانت حياة التجوال والتنقل من مكان لآخر قد مكنت القبلي من الالتفاف حول ظروف بيئته الطبيعية وتحاشي قسوتها في غالبية الاحيان، الا انها حرمته من تطوير ثقافة قادرة على مواجهة التحديات الطبيعية والاجتماعية السائدة وتحقيق التقدم. من ناحية أخرى، ادى اتجاه القبلي الى الهروب من الظروف المناخية التي لا تلائمه الى اماكن أخرى تتوفر فيها مواسم وظروف أفضل الى حرمانه من فرصة تطوير مفهوم إيجابي وعلمي للوقت. ان عدم وعي أهمية الوقت والتصرف وكأن الوقت بلا حدود او غير موجود أصلاً يقود دوما الى اضاعة الفرص المتاحة، والهروب غير الواعي من مواجهة التحديات، وفقدان الحافز لتطوير الثقافة والاقتصاد. ان جمود الاعراف القبلية وانعدام التراكم المعرفي وغياب هاجس الحرية سلب القبلي ثلاثة من عوامل التقدم الرئيسية مما جعل التطور التكنولوجي يسير ببطء شديد وتسبب في جعل المجتمع القبلي يعيش حوالي مئة الف عام دون تقدم يذكر.

في عصور الزراعة إختفي الهاجس الامني الذي ارتبط بتوفير الغذاء من اجل البقاء. لكن ارتباط الفلاح بالارض وخضوعه لانظمة حكم استبدادية، وارتكاز ثقافته على معتقدات دينية ازليه جعله يعيش حياة تقليدية خالية تقريبا من عوامل التغير وحوافز التطور. ان العيش في ظل نظام اقطاعي قام على التزامات متبادلة بين ملاك الاراضي والفلاحين الذين عاش اغلبهم كعبيد ملحقين بالاقطاعيات، وسيطرت الدولة على النواحي السياسية، وسيطرة الدين على الناحية الاجتماعية والثقافية جعل من الصعب على الفلاح أن يجد الفرصة او الوعي الكافي لفعل ما من شانه تطوير حياته وتحرير نفسه. الى جانب ذلك، ساهم مفهوم القضاء والقدر والنظام الطبقي والحساس بالعجز امام جبروت الدولة في إقناع الفلاح بالقبول بالواقع. وهذا جعل حياة الفلاح وثقافته تتمحور حول توفير الغذاء وكيفية الاستمتاع بالاكل. ولذلك كان الانسان الزراعي والانسان الذي ينتمي لعصر الزراعة وثقافتها التقليدية عامة " يأكل ليعيش ويعيش ليأكل" .

ان استقرار الفلاح على قطعة من الارض وارتباطه بمواسم محددة وتقاليد ثابتة الى حد بعيد، كمواسم الزراعة والحصاد وقطف الثمار، واعتماده على فصول السنة وتقلباتها المناخية فرض عليه، ودون وعي، ان يطور مفهوماً واضحا ومحددا للوقت. الا أن الانتظار حتى يحين موسم الزراعة وموسم الحصاد وهطول الامطار وتفتح الازهار ورحيل الخريف جعل مفهوم الوقت لدى الانسان

الزراعي عامة ذا دلالات سلبية. اذ أصبح الوقت من وجهة نظرالثقافة الزراعية عامة ومخلفاتها السائدة في معظم الدول النامية اليوم عبئا على الانسان. وهذا دفع الانسان إلى الاتجاه نحو ابتكار العاب وتطوير عادات من شأنها " قتل الوقت " . وفي الواقع ، وكما نشاهد في بلادنا العربية عامة، أصبحت " إضاعة الوقت " فناً ذا أصول عريقة وجزءاً اساسيا من الثقافة الشعبية وغير الشعبية السائدة، ومجالا للترويح عن النفس من خلال التطبع باطباع وعادات سيئة. وحيث ان الهدف هو تمضية الوقت والتخلص منه، فان فنون وعادات اضاعة الوقت كانت في معظمها سلبية ادت الى اضاعة الفرص المتاحة والحاق الضرر بالصحة العامة وتبذير الاموال التي عزت لدى الفقراء .

من ناحية أخرى ، أدى نجاح الانسان في انتاج فائض زراعي الى حدوث نمو سكاني وتراكم للثروة، كما أتاح للانسان ما يكفي من الوقت للتفكير، وهذا ادى الى ميلاد فكرة التقدم. إذ أن توفر الوقت لدى الثري والقوي وحاجة الاثنين لاحصاء السكان والثروات وادارة الممتلكات دفع في اتجاه اختراع الكتابة وتأسيس الحسابات الفلكية واكتشاف الاديان ، السماوية وغير السماوية ، وتدوين السجلات ، خاصة ما كان يتعلق منها بالحروب والملوك والاوبئة .

في عصور الصناعة حصل الانسان المنتمي لتلك العصور على قدر كبير من الحرية السياسية، وذلك بعد ان كان قد حصل على حريته العقائدية والاجتماعية. لكن المجتمع الجديد الذي أفرزه نمط الانتاج الصناعي كان مجتمعا طبقيا فرضت ظروف نشئته وتطوره اتساع فجوة الثروة والقوة بين الناس بإستمرار، وتبلور وعي طبقي لدى فئات المجتمع المختلفة ، مما تسبب أحيانا في وقوع الصراع بين الطبقات. لكن الوعي الطبقي لدى الاغنياء والعمال وابناء الطبقة المتوسطة ادى فيما بعد إلى خلق توازن داخل المجتمع وقاد تدريجيا الى تحديد الواجبات والحقوق، والاعتراف بالحريات العامة والخاصة، ولكن على حساب المساواة والعدالة الاجتماعية .

حين حلّ نمط الانتاج الصناعي في انجلترة، أول الدول التي دخلت عصر الصناعة، كان الفلاح قد فقد أرضه ومصدر رزقه واحساسه بالامن الغذائي، وذلك لان الاقطاعي كان قد استولى على الاراضي وطرد الفلاحين منها. ولقد تسبب هذا في خلق جيوش من الفقراء المعدمين الباحثين عن عمل يوفر لهم امكانيات العيش والبقاء. وفي ظل ظروف كهذه لم يكن امام العامل خيار سوى استغلال وقته، مما اعطي صاحب العمل فرصة استغلال العمال و ربط الدخل بالانتاجية. وبالتدريج اصبح المجتمع الصناعي الجديد يرتبط بالآلة وينظم حياته حولها وعلى دقاتها المتسارعة . وفي ظل هذه الاوضاع كان على المجتع الصناعي تطوير ثقافته ومفهوم الوقت لديه على اسس جديدة، حيث شاعت مقولة " الوقت من ذهب" ، مما جعل " الانسان الصناعي يعمل ليعيش ويعيش ليعمل " . ومع الارتباط بالآلة والعيش في كنف ثقافة المصنع والخضوع لانظمة انتاج صارمة ضعفت غالبية العلاقات الانسانية التي سادت

عصر الزراعة وقامت على التعاون والتعاطف والتكافل والثقة التقليدية لتحل محلها القوانين الحكومية وانظمة الضمان الاجتماعي ومؤسسات المجتمع المدني التي أعطت ميلادا لما يطلق عليه اليوم " رأس المال الاجتماعي ".

ان تأسيس الصناعة على الآلة وعلى تصنيع المواد الغذائية والمعادن والملبوسات والجلود وغيره ساهم في احداث ثورة علميةٍ وتكنولوجية بلا حدود. اذ أن التطلع الدائم نحو رفع انتاجية العامل والآلة، والعمل الدؤوب على تحسين نوعية المنتوجات وانتاج بضائع جديدة ، واستخدام العلوم والفنون التكنولوجية لانتاج معدات وادوات تساهم في تحسين نوعية ومستوى حياة المواطن وتعزيز قدرته على التمتع بوقته وماله جعل عملية التقدم المادي هدفا في حد ذاته. وهذا ادى بدوره الى حدوث تراكم كبير وتزايد متنامي في المعارف بكافة اشكالها واستخداماتها. لكن، وكما كان عليه الحال في عصر الزراعة، كانت المعرفة في معظمها حكراً على الاغنياء ونتاجا لجهد العلماء وخيال الموهوبين ونتاج المبدعين ممن سمحت لهم ظروفهم المعيشية وفرصهم التعليمية اكتشاف وتطوير مواهبهم وقدراتهم الخلاقة وإبراز أعمالهم الابداعية.

ان توفر الحرية لدى المفكر، والفرصة لدى المبدع، وغياب الهاجس الامني الغذائي والمصيري، وتقدير قيمة الوقت جعل اوروبا الصناعية اكبر حظيرة لتفريخ العلماء وتنشئة الموهوبين وتربية المبدعين. ومع تسارع عمليات التراكم المعرفي والانتشار التكنولوجي والتوسع الاقتصادي كان من الطبيعي ان يتقدم المجتمع الصناعي على سواه من مجتمعات زراعية وغير زراعية أخرى وان يفرض على تلك المجتمعات ان تتحول الى مجتمعات متخلفة نسبيا عن العصر وتابعة تبعية علمية وتكنولوجية واقتصادية وثقافية لمجتمعاته الصناعية.

في عصر المعرفة، وهو العصر الآخذ اليوم في التكون، والذي يطلق عليه أحيانا عصر المعلومات وأحيانا عصر ما بعد الصناعة، واحيانا أخرى عصر العولمة، أصبح للمعرفة والوقت دورا اكثر أهمية في حياة الفرد والمجتمع. ان تحول نمط الانتاج من الزراعة الى الصناعة جعل الوقت يتحول من عبء الى ثروة ، وبالتحول من نمط انتاج البضائع الى نمط انتاج المعلومات والخدمات المؤسسة على المعرفة والتخصص العلمي الدقيق أصبح الوقت أهم الثروات التي يملكها الانسان المعرفي جميعا. وحيث ان صناعة المعلومات وتصميم شبكات الاتصالات تقوم على العلم والتكنولوجيا، فإن المعرفة أصبحت أهم الموارد ومصادر الثروة على الاطلاق، اذ اصبحت إمكانياتها تعادل امكانيات رأس المال والموارد الطبيعية معا. الا أن المعرفة، وبسبب ارتفاع تكلفتة الحصول واحتياجها لسنوات طويلة من التعليم الرسمي والتدريب العملي والخبرة التخصصية، اصبحت مصدرا لتعميق الفوارق الطبيقية، وخلق الفجوات الثقافية والاجتماعية بين افراد المجتمع الواحد وبين

المجتمعات المختلفة. وفي الواقع، ادت ديناميكية الحياة عامة وسرعة التراكم المعرفي والتطوير التكنولوجي والتحول الثقافي والاجتماعي والتلاقح الفكري والانفتاح على الغير والعالم الى تفتيت كل الثقافات الوطنية وتجزئة كل المجتمعات القومية.

في العصر الزراعي، وبسبب طبيعة مهنة الزراعة، لم تكن هناك حاجة كبيرة لعمالة ماهرة او لعمال يحترمون الوقت بالمعنى المعروف اليوم ويقدرون قيمته كما يجب. كان المهم ان لا يتأخر الفلاح عن الموسم الزراعي وليس عن مواعيد العمل اليومية والتي كانت في غاية المرونة. قد كانت المعارف في حينه ايضا بسيطة ولا تزيد كثيرا عن كونها حصلية تجارب يتوارثها الابناء عن الآباء عن الاجداد، ويمكن الحصول عليها من خلال التمسك بالتقاليد واتباع الحكمة المألوفة. في العصر الصناعي أصبح من الضروري توفر عمالة ذات مهارات فنية وعمال يحترمون الوقت ويلتزمون به بدقة ويراعون النظام ويقدرون أهمية الانتاج والكسب المادي.

اما في عصر المعرفة، فان العامل المعرفي أصبح بحاجة كبيرة لمهارات فنية عالية ومعارف علمية تخصيصية ومواقف ايجابية من العمل والوقت والنظام. وهذا يعنى انه لم يعد بامكان أي عامل أن يكون مشاركا في صناعة المعرفة دون امتلاك معارف ومهارات لايكتسبها العامل عادة الا من خلال التعليم الرسمي والتدريب العملي والانغماس الشخصي في عملية التحصيل العلمي والتخصص الدقيق. ولذلك فإن ثقافة عصر ما بعد الصناعة هي ثقافة تتمحور حول المعرفة مما جعل " الانسان المعرفي يتعلم ليعيش ويعيش ليتعلم".

كانت صناعة المعرفة في العصر الزراعي ترفا لا يمارسها غير الاغنياء ولا يشجعها غير السلاطين والحكام ولا يستخدمها غير اصحاب النفوذ السياسي والهيمنة الاجتماعية - الثقافية. اما في العصر العصناعي فان المعرفة أصبحت وسيلة لتقدم الاقتصاد وتطور التكنولوجيا وتحرر الفرد والمجتمع، وهذا جعلها تتحول من مبادرات فردية الى عمليات مؤسسية تملكها الدولة واصحاب المصالح الاقتصادية، ويستخدمها الحكام ورجال الاعمال واصحاب رؤوس الاموال لزيادة ثرواتهم وتكريس نفوذهم. وفي عصر العولمة اصبحت المعرفة حاجة فردية ومجتمعية ماسة وأهم أدوات تحرير الذات من كل القيود الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، بما في ذلك قيود الفقر والكتب السساسي والاجتماعي والتبعية الفكرية وغير الفكرية.

ان ارتباط المعرفة بالثروة قديم قدم التاريخ، إذ كانت المعرفة القائمة على السحر والشعوذة أداة لكسب العيش والاحتيال على الغير والسيطرة عليهم. ولقد تطورت علاقة المعرفة بالثروة إيجابا حيث اصبحت المعرفة التكنولوجية في عصر الصناعة أهم وسائل زيادة الانتاج ورفع انتاجية العامل والآلة، وانتاج أدوات القهر وادوات تحقيق النصر على السواء. اما اليوم فان المعرفة أصبحت اساس الثروة، كما اصبحت الثروة الوسيلة الأهم للحصول على المعرفة. وفي الواقع أصبح المعرفي رأسماليا بما يملك من معارف ومهارات، فمعرفته يمكن استمارها في أماكن مختلفة وباشكال مختلفة تعود عليه بعوائد مادية ومعنوية مجزية، وتعفيه من الحاجة للواسطة واللجوء الى الرشوة او القبول بالتنازل عن بعض قيمة من أجل الحصول على فرصة عمل مناسبة.

من ناحية أخرى ، يتسبب التزايد المستمر في تكلفة التعليم المعرفي في حرمان غالبية الطلبة من الحصول عليه، اذ أصبح مثل ذلك التعليم مقصورا على الاثرياء وابنائهم الى حد بعيد. وهذا يجعل من الضروري قيام الدولة ومؤسسات المجتمع المدني بالتعاون لتوفير التعليم المعرفي في كل بلد عربي، والبحث عن الموهوبين والطموحين والعمل على توفير فرص التعليم المعرفي لهم وتنمية مواهبهم وقوى الخلق والابتكار والابداع لديهم.

ان إتجاه العلاقة بين الثروة والمعرفة الى الترابط الوثيق يجعل من الصعب على الفقير الحصول على المعرفة، وبالتالي على وظيفة جيدة تمكنه من تكوين بعض الثروة، كما تجعل من السهل على الثري وابنائه الحصول على التعليم المعرفي الذي يؤهلهم للحصول على فرص عمل جيدة وتكوين المزيد من الثروة. ان نظرة سريعة الى عالم اليوم تكشف لنا بوضوح انه لايوجد مجتمع معرفي فقير، ولا يوجد مجتمع ثري جاهل، ولا يوجد مجتمع جاهل غير فقير. الفقر يلد الجهل، والجهل يغذي الفقر، والغنى يلد المعرفة، والمعرفة تغذي الغنى.

على الرغم من تفاوت قدرات المجتمعات المختلفة على الخلق والابداع، الا أن نسب الموهوبين في كل المجتمعات الانسانية متقاربة الى حد كبير وتقدر بحوالي 20 % من السكان. لكن البيئة الثقافية والعوامل الاجتماعية والسياسية والظروف المعيشية والتحديات المجتمعية تلعب دورا أساسيا في تشجيع بعض المجتمعات على اكتشاف وتنمية واستغلال المواهب لديها، وتحرم مجتمعات أخرى من إدراك اهمية المواهب والقدرات الخلاقة الموجودة لديها. ان العقل الانساني يملك قدرة جبارة على الخلق والابتكار، لكن هذا العقل هو أسير الثقافة المتوارثة والانظمة والنظم المتحكمة والظروف المعيشية السائدة.

تشكل الثقافة، بما في ذلك القيم والعادات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية، القناة الوحيدة التي يتعامل العقل من خلالها مع الواقع، والتي يشرح الواقع حاله من خلالها للعقل كي يفهمه ويقوم بتقييم اوضاعه واحتياجاته بناء على ذلك. وفي اعتقادي، لم تّعد الثقافة العربية السائدة اليوم صالحة للتعامل مع المعرفه العصرية بإيجابية، ولا السماح للعقل بالتواصل مع الواقع بحيادية وعلمية، ولا التفاعل الخلاق مع العصر والتعايش معه على اساس تبادل المصالح وتلاقح الثقافات والتسامح مع الآخر والقبول بحق الاختلاف في الرأي والفكر.

حين يتحرك التاريخ، والتاريخ قد يتسارع وقد يتباطؤ ولكنه لايتوقف عن الحراك أبدا، يتحرك بفعل قادته وصناعه من مبدعين ومفكرين وعلماء ومعرفين ينشطون من خلال اربعة عمليات مجتمعية رئيسية، هي : العملية الاجتماعية - الثقافية، والعملية السياسية، والعملية الاقتصادية، والعملية الاعلامية - المعلوماتية. وعلى الرغم من وجود ونشاط هذه العمليات في كل مجتمع في الحاضر وفي الماضي، الا انها تبلورت وقامت بقيادة حركة المجتمع والسيطرة عليه تباعاً. كانت العملية الاجتماعية - الثقافية أول تلك العمليات حيث تبلورت في صورتها البدائية على شكل عادات وتقاليد وأعراف ومواقف ترسخت تدريجيا في حياة الناس وقامت بالسيطرة على حياة وحركة المجتع القبلي عامة، ولآلاف السنين من حياة المجتمع الزراعي الذي تبعه. وحين تبلورت الديانات المختلفة في أواخر عصر الزراعة اصبحت القيم والمعتقدات الدينية جوهر الثقافة وأهم العوامل المنظمة للحياة الاجتماعية بوجه عام.

في أواسط عصر الزراعة، وبسبب حاجة المجتمعات الزراعية المتزايدة لسلطة فوقية تنظم العلاقات بين التجمعات الزراعية المتجاورة وتشرف على توزيع الأراضي ومصادر المياه فيما بينها وتوفر الأمن للناس والحماية من غزوات القبائل ظهرت الدولة، او العملية السياسية. ولقد كان لتلك العملية اليد العليا والسيطرة على حياة المجتمعات الزراعية وحياة المجتمعات الصناعية حتى منتصف القرن العشرين. وكما ساهم الدين في ترسيخ وتعزيز دور العملية الاجتماعية - الثقافية في حياة وحركة المجتمع الزراعي القديم، ساهمت الفكرة القومية والفلسفة التجارية الميركانتيلية في ترسيخ وتعزيز دور الدولة والعملية السياسية في حياة وحركة المجتمع الزراعي الحديث عامة وحياة المجتمع الصناعي خاصة ، وذلك حتى منتصف القرن الماضي.

مع بدايات عصر النهضة الاوروبية واتساع نطاق التجارة الداخلية والخارجية، أخذت العملية الاقتصادية في التبلور التدريجي والقيام بدور متزايد في ادارة حياة وتوجيه حركة المجتع الاوروبي. وبعد حدوث الثورة الصناعية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وانتشار الاستعمار وقيام الدول الاستعمارية بنهب ثروات الشعوب من خلال الاستثمار المكثف لرأس المال في مختلف الصناعات

تصاعد دور العملية الاقتصادية وتزايدت أهميها المجتمعية. ولقد استمر نفوذ العملية الاقتصادسة في التصاعد حتى أواخر القرن الماضي حين أخذت العملية الاعلامية - المعلوماتية في التبلور. ورغم جذورها العميقة في التاريخ، فان العملية الإعلامية المعلوماتية لم تتبلور كعملية مجتمعية رئيسية الا بعد حدوث ثورتي الاتصالات والمعلومات في النصف الثاني من القرن العشرين. وتعتبر هذه العملية اليوم اكثر العمليات المجتمعية نفوذا وقدرة على التأثيرعلى حياة وثقافات وتوجهات مختلف الشعوب.

اتجهت كل عملية مجتمعية الى التعاون اولا، ومن ثم الى السيطرة على العملية المجتمعية السابقة لها، كما اتجهت أيضاً الى مد نفوذها الى مجتمعات مجاورة. فالعملية السياسية ولدت في عصر الزراعة في رحم العملية الاجتماعية - الثقافية وقامت اولا بالتحالف معها، ثم قامت بالسيطرة عليها وتسخيرها لخدمة أهدافها السياسية والطبقية الخاصة. وبينما انحصر نفوذ ودور العملية الاجتماعية - الثقافية ضمن تجمعات انسانية صغيرة كالمجتمع القبلي والزراعي المحلي، امتد نفوذ العملية السياسية الى الكثير من التجمعات واحيانا المناطق الجغرافية المجاورة والبعيدة. وحين أخذت العملية الاقتصادية في التبلور وجدت ان عليها التعاون والتحالف مع العملية السياسية وذلك حتى منتصف القرن الماضي حين اصبحت العملية الاقتصادية الاكثر أهمية وقدرة على التأثير في حياة وتوجهات المجتمع الصناعي وسياسته الخارجية. وبينما انحصر نفوذ ودور العملية السياسية ضمن نطاق الاراضي والشعوب التي سيطرت عليها الدولة او الامبراطورية الى حد بعيد، امتد نفوذ العملية الاقتصادية ليشمل الحياة الاقتصادية وبعض اوجه الحياة السياسية والاجتماعية لمعظم شعوب الارض. اما العملية الاعلامية - المعلوماتية فان نفوذها ومجالات تأثيرها تشمل كافة أوجه الحياة لكافة شعوب الارض في كافة بقاع العالم.

ان استحواذ كل عملية مجتمعية على الدور الاكبر والمكانة الاكثر أهمية في حياة المجتمع جعلها تستقطب أفضل العقول واكثر المواهب للعمل في خدمتها. فالعملية الاجتماعية - الثقافية سخرت أفضل العقول للعمل في خدمة الدين والمؤسسة الدينية، بينما سخرت العملية السياسية افضل العقول والمواهب لخدمتها في قيادة الجيوش وادارة شؤون البلاد وجمع الضرائب من المواطنين. اما العملية الاقتصادية فقد جذبت وسخرت أفضل العقول والمواهب في تطوير التكنولوجيا الصناعية وادارة رؤوس الاموال والمشاريع الاستثمارية والنشاطات المالية والتجارية. واليوم تستقطب العملية الاعلامية - المعلوماتية افضل العقول والمواهب في تطوير تكنولوجيا الاتصالات وصناعة المعلومات وتنمية المعرفة بكافة أشكالها، واعادة تشكيل الثقافات وطرق التفكير والحياة والحكم بالنسبة لكل المجتمعات والدول. وهذا يعني ان تطوير قطاع الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات والاعلام وتشجيع الموهوبين وذوي القدرات الخلاقة على الدخول الى عالم المعرفة المرتبط بتلك النشاطات لابد وان

يخطى بالأهمية والاولوية حتى نتمكن من تحقيق التقدم ويكون لنا دور مساهم في توجيه حركة التاريخ الحديث.

ان كل الامور الرئيسية التي تشغل بالنا اليوم كعرب ومسلمين من قضايا فكرية وفلسفات حياتية وعلوم طبيعية وتطلعات سياسية واقتصادية ونظم مجتمعية وانماط انتاجية ومنتوجات تكنولوجية ومعارف وفنون متنوعة هي اما من صنع الغير، أو ردود فعل عربية اسلامية على منتوجات مادية وغر مادية غربية. كما أن كل ما انتجه الغرب من معارف وفلسفات وبضائع ونظم ادارية وحياتية هي من صنع موهوبين مبدعين نشأوا في بيئات اجتماعية - ثقافية واعية ومتعاطفة، وفي ظل انظمة حكم سياسية داعمة ومشجعة، ومن خلال نظم تعليم ومؤسسات علمية وبحثية دائمة التطور وتخطى بالتمويل والدعم المطلوبين. وهذا يعنى انه دون تحرر العقل المبدع من اسطورة الخرافة والجهل، وتحرر الفرد من قيود وكبت العملية الاجتماعية - الثقافية التقليدية، وتحرر المجتمع من استبداد وهيمنة العملية السياسية، سيكون من الصعب سطوع نجم المفكرين والموهوبين والمبدعين، ومن الاصعب تحرر الانسان وتقدم المجتمع في عالمنا العربي والاسلامي.

ان تحرير العقل العربي وتفجير الطاقات والمواهب الكامنة فيه وتقدم المجتمع وانتشال الفقراء من مستنقع الحاجة والمرض لن يتحقق في ظل دعوات الحفاظ على وحدة الثقافة الوطنية واولوية التراث وقدسية العادة والتقليد. وان الحفاظ على وحدة الثقافة واولوية التراث وقدسية العادة والتقليد والقيم القديمة لن يتحقق الا على حساب المعرفة والحرية والابداع والتقدم وانقاذ الفقراء من جحيم الجهل والبؤس. ان عدم الاعتراف بتقادم الزمن وتراجع صلاحية ثقافة الماضي ومسؤوليات إهدار المواهب واهمال المبدعين لن يقود الا الى الهروب الواعي من التاريخ والتخلف عن العصر.

تعتبر الوسطية والقناعة من أعمدة الثقافة العربية التي نعتز بها وندعو دوما الى التمسك بها ونعمل بوعي وبدون وعي على ترسيخها في الفكر والممارسة. لذلك، يكثر استخدام تعابير " خير الامور الوسط "، " والقناعة كنز لا يفني " باعتبارها أقوالا مأثورة وحكما لا غنى عنها لحياة فاضلة. ولقد ترتب على هذا اتجاه الثقافة العربية عامة الى الاهتمام بمن يقع في الوسط من حيث الفطنة والطموح والمثابرة والرغبة في التعليم والعمل ، واهمال الذكي النشط والجاهل الضعيف على حد سواء. فالجهلة وذوي القدرات العقلية المتواضعة يعتبرون قاصرين وليس هناك فائدة حقيقية ترجى من مساعدتهم والاهتمام بتوفير احتياجاتهم الخاصة، والاذكياء الواعون لقدراتهم والطموحون يعتبرون " شُطّار " واقوياء " واحيانا مشاغبين متعبين وليسوا بحاجة الى مساعدة كي ينجحوا في الوصول الى ما يريدون، مما يجعلهم لا يحصلون على العناية الاضافية التى يحتاجونها لتوفير امكانيات وظروف تنمية مواهبهم وتطوير طاقاتهم العقلية وبلورة قدراتهم الابداعية الخلاقة .

اما الانسان الوسطيّ من حيث الذكاء والنبوغ والطموح فهو الشخص الذي يستحق المساعدة لانه بحاجة " لدفعة " كي يتخطى عقبات الحصول على مقعد دراسي في الجامعة، ويتجاوز متطلبات الفوز بوظيفة توفر له حياة كريمة ومستوى معيشيا لا بأس به. وهذا يجعل مثل هذا الشخص يشعر بان له حقوق على المجتمع، وان لجوءه الى الواسطة والجاهة وتبادل الخدمات هو الامر الطبيعي. وبذلك تساعد ثقافتنا متوسطي الذكاء وضعيفي الطموح والكسالى على اكتساب صفات الفهلوة والتملق والتسلق والوصول من خلالها الى مراكز القيادة في المجتمع، وذلك على حساب الجاهل والضعيف الذي يحتاج حقا لمساعدة كي لا يكون عبئا على المجتع، وعلى حساب الموهوب والمبدع المحتاج لعناية خاصة كي يصبح ثروة تغني المجتمع.

د. محمد عبد العزيز ربيع

professorrabie@yahoo.com

www.yazour.com